الورقة الأولى

قراءة في المشاهد السابقة لحروب (٢٠٠٣ – ٢٠٠٩)

أ. عاطف الجولاني*

الوقوف عند نتائج المواجهات العسكرية التي وقعت في السنوات الأخيرة في كل من لبنان وفلسطين والعراق، وكذلك قرع طبول الحرب في المنطقة ربيع عام ٢٠٠٧، أمر بالغ الأهمية في قراءة احتمالات اندلاع مواجهات جديدة خلال الفترة القادمة في منطقة تميزت بالسخونة على الدوام.

المشهد الأول: العدوان على العراق عام ٢٠٠٣

في ٢٠ آذار/ مارس عام ٢٠٠٣ بدأ العدوان الأمريكي على العراق، وفي ٩ نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٣ أعلنت القوات الأمريكية بسط سيطرتها على العراق وإنهاء نظامه السياسي، وأطلقت على الحرب تسميات متعددة، منها: «حرب العراق» و«حرب الخليج الثالثة» و«العدوان على العراق»، فيما أطلقت الولايات المتحدة على الحرب اسم «عملية تحرير العراق» في محاولة لإضفاء بعد أخلاقي على أعمال التدمير التي مارستها بحق العراق، والتي أسفرت عن قتل مئات آلاف العراقيين، وتدمير البنى التحتية.

مسوِّغات العدوان

ساقت إدارة المحافظين الجدد جملة من الذرائع لتسويغ عدوانها، ولإقناع الشارع الأمريكي والرأي العام العالمي بشرعية حربها على العراق، ومن هذه المسوغات:

١- إصرار النظام العراقي السابق على عدم تطبيق قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالسماح للجان تفتيش الأسلحة بمزاولة أعمالها في العراق.

٢- استمرار النظام العراقي السابق بتصنيع «أسلحة دمار شامل» وامتلاكها، وعدم تعاون القيادة العراقية بتطبيق قرارات الأمم المتحدة بخصوص إعطاء بيانات عن ترسانتها من أسلحة الدمار الشامل، وكانت هذه الذريعة من أهم المسوغات التي

* رئيس تحرير صحيفة السبيل اليومية الأردنية.

ساقتها الإدارة الأمريكية لتسويغ عدوانها.

٣- وجود علاقة بين نظام صدام حسين وتنظيم القاعدة المتهم بتنفيذ هجمات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة.

٤- توفير الحرية للشعب العراقي، ونشر الديمقراطية في المنطقة، وتقديم العراق نموذجاً للإصلاح والحرية والديمقراطية التي ترغب الولايات المتحدة بتعميمها في المنطقة.

تهاوي الذرائع

وقد ثبت فيما بعد تهاوي جميع المسوِّغات التي ساقتها إدارة الرئيس جورج بوش لشن الحرب؛ إذ تأكد بصورة قطعية عدم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وتهاوت جميع الأدلة التي لفقتها المخابرات الأمريكية لخداع مجلس الأمن بهذا الخصوص، كما فشلت إدارة بوش في إثبات وجود أي علاقة بين النظام العراقي السابق وتنظيم القاعدة.

أما الحرية والديمقراطية التي وعدت العراقيين بها، فقد تأكد أنها لم تكن أكثر من أكذوبة كبرى؛ إذ لم ير منها العراقيون سوى القتل والتشريد والتدمير، وغياب الأمن وسيطرة منطق المحاصصة الطائفية، وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الفوضى الخلاّقة التي تحدثت عنها وزيرة الخارجية الأمريكية في حينه كوندااليزا رايس لم تكن سوى فوضى مدمرة وهدّامة.

وإذا كانت إدارة بوش خططت لأن يكون العراق منطلقاً لإعادة رسم الخرائط السياسية والجغرافية للمنطقة على المقاس الأمريكي، فإنَّ الحرب تحولت إلى واحدة من أكبر الحماقات الأمريكية في العقود الأخيرة، بما أحدثته من انعكاسات مدمرة على المصالح الأمريكية وعلى صورة الولايات المتحدة في العالم، وأضحى الخروج من المستنقع العراقي وإصلاح صورة أمريكا في العالم، هدفاً رئيساً للإدارة الأمريكية اللاحقة، التي اعترفت بحجم الضرر الفادح الذي ألحقته الحرب على العراق بالمصالح الأمريكية الاستراتيجية.

لقد اتضح حجم الخطأ الكبير الذي ارتكبه بوش بتسرُّعه بإعلان النصر في العراق عقب تمكنه من إسقاط النظام العراقي السابق؛ فقد اندلعت أعمال مقاومة بطولية بعد أيام من إعلان النصر، استنزفت قوات الاحتلال الأمريكي وأجبرته في نهاية المطاف على وضع جدول زمني للخروج من العراق، بعد أن كبدته عدة آلاف من القتلى، وعشرات آلاف الجرحى، فضلاً عن خسائر مالية تجاوزت ٢ ترليون دولار.

المشهد الثاني: العدوان على لبنان عام ٢٠٠٦

اندلع العدوان الإسرائيلي على لبنان في ١٢ تموز/ يوليو عام ٢٠٠٦ واستمر ٣٤ يوماً، وكان مقاتلو حزب الله نفذوا في ١٢ تموز/ يوليو عام ٢٠٠٦ عملية «الوعد الصادق» التي أسفرت عن قتل عدد من الجنود وأسر اثنين، تبين فيما بعد أنهما قتلا في أثناء العملية، واحتفظ مقاتلو حزب الله بجثتيهما.

وقد استغلت إسرائيل هذه العملية مسوِّغاً لشنِّ عدوان واسع على لبنان، استهدف المقاومين والسكان والبنى التحتية، ولم يتورَّع الجيش الصهيوني عن ارتكاب مجازر وحشية ذهب ضحيتها مئات المدنيين.

المسوِّغات

أعلنت إسرائيل هدفين لعدوانها على لبنان، **الأول:** تحرير الجنديين الإسرائيليين المختطفين، **والثاني:** معاقبة حزب الله والقضاء على قدراته الصاروخية من أجل توفير الأمن لسكان المستوطنات الإسرائيلية في الشمال.

وكان واضحا رغبة إسرائيل باستعادة قوة ردعها التي تآكلت عام ٢٠٠٠، بعد أن أجبرتها المقاومة على الهروب تحت جنح الظلام من الجنوب اللبناني.

وإذا كان حزب الله وإسرائيل الطرفين الواضحين في مشهد المواجهة، فإن القناعة كانت كبيرة بأن ثمة وجهاً آخر للمواجهة بين الولايات المتحدة من جهة، وبين سوريا وإيران من جهة أخرى، حيث سعت إدارة بوش لبسط سيطرة حلفائها المحليين على لبنان، في محاولة لتوجيه ضربة قوية للنفوذ السوري والإيراني.

فشل جديد

وبالرغم من الخسائر الهائلة في صفوف المدنيين اللبنانيين، وفي البنى التحتية، فشلت «إسرائيل» في تحقيق أي من أهدافها المعلنة، ومنيت الجبهة الداخلية الإسرائيلية بخسائر كبيرة، ونجحت صواريخ المقاومة في الوصول إلى كثير من المدن الفلسطينية المحتلة.

وعوضاً عن استعادة قوة الردع المتآكلة تعرضت هذه القوة لضربة جديدة مؤلمة، وشُكِّلت لجنة «فينوغراد» للتحقيق في أسباب الإخفاق في حسم نتيجة المعركة وتحقيق أهدافها المحددة.

المشهد الثالث: قرع طبول الحرب عام ٢٠٠٧

في ربيع عام ٢٠٠٧ شارك الآلاف من قوات الجيش والشرطة الإسرائيلية وخدمات الطوارئ والدفاع المدني في مناورات ضخمة، استمرت خمسة أيام، اعتبرت الأكبر من نوعها في تاريخ إسرائيل منذ إنشائها عام ١٩٤٨.

وقامت القوات المشاركة في المناورات بمحاكاة سلسلة سيناريوهات تشكل تهديداً للأمن الإسرائيلي، وفي مقدمتها التدرُّب على التعامل مع احتمال تعرض إسرائيل لإطلاق الصواريخ والقذائف الصاروخية من سوريا ولبنان وقطاع غزة في آن واحد، بحسب الإذاعة الإسرائيلية.

وفيما قامت القوات الأمريكية بحشد قوة بحرية كبيرة قبالة الشواطئ الإيرانية، هدَّد مسؤولون إيرانيون بالرد بقوة على مواقع الوجود الأمريكي في المنطقة، في حال تعرضت إيران لهجوم عسكري.

وثمة من رأى أن قرع إدارة بوش لطبول الحرب في ربيع عام ٢٠٠٧ كان له أهداف انتخابية، فقد كان المحافظون الجدد معنيين بتغطية إخفاقاتهم في العراق وأفغانستان، وبصرف أنظار الأمريكيين عن نعوش جنودهم التي توافدت على الولايات المتحدة، مفجّرة مشاعر غضب شعبي واسع.

وفيما كانت إسرائيل معنية بتوجيه رسائل تحذير إلى كل من سوريا ولبنان، فإنها لم تكن بعيدة عن تحريض المحافظين الجدد، الذين أظهروا تجاوباً كبيراً مع التخوفات الإسرائيلية من تنامي القدرات العسكرية الإيرانية.

وبالقدر الذي كان فيه التهديد بشن حرب على إيران حاجة أمريكية، كان في ذات الوقت حاجة إسرائيلية حرصت تل أبيب على عدم إخفائها.

وعلى الرغم من أن قرع طبول الحرب جعل الكثيرين يعتقدون أن الحرب في المنطقة على واحدة من الجبهات الساخنة، باتت قاب قوسين أو أدنى، فإن التهديدات المبادِرة توقفت عند تلك الحدود، ولم تتجاوزها إلى أعمال عسكرية، في إشارة إلى أن تعالي أصوات الحرب والاستعدادات العسكرية وإجراء المناورات وإطلاق التهديدات شيء، وأن قرار الحرب شيء آخر.

المشهد الرابع: العدوان على غزة مطلع العام ٢٠٠٩

شنت إسرائيل مطلع العام ٢٠٠٩ عدواناً عسكرياً واسعاً على قطاع غزة، شاركت فيه كافة وحدات الجيش الإسرائيلي، واستخدمت فيه قوة نار وتدمير هائلة، بهدف حسم نتيجة المعركة سريعاً، ما أسفر عن سقوط أكثر من ألف شهيد فلسطيني، فضلاً عن عدد كبير من الجرحى، كما ألحق العدوان دماراً هائلاً في البنى التحتية، وترك عشرات الآلاف من سكان القطاع بلا مأوى.

وتجنبت إسرائيل الإعلان عن أهداف محددة لعدوانها على غزة، في محاولة منها لتلافي تكرار سيناريو عدوانها السابق على لبنان، حيث تم الحكم بفشله لكونه لم ينجح في تحقيق الأهداف المعلنة، غير أن الحديث إسرائيلياً كان يدور بصورة غير مباشرة حول جملة من الأهداف الرئيسية، من أهمها:

- تحرير الجندي جلعاد شاليط الأسير لدى حماس.
- القضاء على حكومة حماس في قطاع غزة وإعادة السلطة فيه إلى السلطة الفلسطينية ولحركة فتح.
- ضرب القدرات الصاروخية للمقاومة الفلسطينية، وإضعاف قدرتها على تهديد المستوطنات الإسرائيلية في محيط القطاع.
- تحسين صورة الجيش الإسرائيلي، واستعادة قدرة الردع.

وبالنظر في نتائج العدوان، يتضح فشله الذريع في تحقيق أي من أهدافه، فقد بقي شاليط في الأسر، ولم ينجح العدوان في القضاء على حكومة حماس، وفي إضعاف القدرات الصاروخية للمقاومة، وظل أمن المستوطنات رهناً بقرار المقاومة بالتصعيد أو التهدئة، لا رهناً بقدرة الجيش الإسرائيلي على توفير الأمن لها.

أما قدرة الردع الإسرائيلية فتعرضت لضربة في الصميم، وباتت قدرة الجيش الإسرائيلي على تحقيق النصر وحسم المواجهة مع حركة مقاومة، موضع شك كبير.

خلاصات واستنتاجات

من خلال قراءة نتائج المواجهات العسكرية في العراق عام ٢٠٠٣، وفي لبنان عام

٢٠٠٦، وفي قطاع غزة عام ٢٠٠٩ وكذلك قرع طبول الحرب في العام ٢٠٠٧، يمكن الوقوف عند جملة من الاستنتاجات والخلاصات المهمة، التي تساعد في التنبؤ باحتمالات اندلاع مواجهة جديدة في المدى القصير المنظور، ومن هذه الخلاصات:

١- لقد أثبتت استراتيجية الحروب الاستباقية التي اعتمدتها إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش عدم جدواها، وفشلت المواجهات الأمريكية والإسرائيلية في تحقيق أهدافها المعلنة بالرغم من عمليات الخداع والتضليل في تلفيق مسوغات العدوان؛ وفي الوقت ذاته نجحت استراتيجيات حركات المقاومة في استنزاف الخصم، وفي جرّه لمواجهات طويلة المدى لا يقوى على احتمالها، وفي تكبيده خسائر بشرية واقتصادية فادحة، الأمر الذي كان له انعكاسات مهمة على رغبة الأمريكان والإسرائيليين واندفاعهم لخوض مغامرات عسكرية جديدة.

٢- عرّض قادة عسكريون وسياسيون في الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل مستقبلهم السياسي ومستقبل أحزابهم للخطر، ثمناً لمغامرات وإخفاقات عسكرية في العراق ولبنان وفلسطين، وبات خلفاؤهم في السلطة يفكرون طويلاً قبل التورط في مغامرات جديدة في هذه الساحات أو في ساحات أخرى، في ظل حالة من عدم اليقين بإمكانية أن تحقق أي مواجهات جديدة ما عجزت عن تحقيقه المواجهات السابقة.

٣- أكدت نتائج المواجهات العسكرية الأخيرة جاهزية حركات المقاومة واستعداداتها المسبقة لخوض المواجهة، الأمر الذي زاد من ثقة الجماهير بقدراتها وخياراتها، فيما أظهرت نتائج المواجهات اهتزاز ثقة المجتمعين الإسرائيلي والأمريكي في قدرة جيشيهما على تحقيق انتصارات سريعة، وحماية الجبهة الداخلية كما كان يحصل في أوقات سابقة، ما كان له تأثير مهم في تأييد الأوساط الشعبية لأعمال عسكرية جديدة.

٤- الضرر البالغ الذي ألحقته المواجهات خلال السنوات الماضية في لبنان وفلسطين بقوة الردع الإسرائيلية، يشكّل عاملاً محفزاً باتجاه العمل على استعادة قدرة الردع المهدورة، كما أن تنامي القدرات العسكرية لحركات المقاومة ولدول الممانعة، وفشل المواجهات السابقة في إضعاف هذه القدرات، ترى فيه إسرائيل والولايات المتحدة تهديداً وخطراً

مرشحاً للتصاعد، إن لم يتم تداركه والتعامل معه سريعاً، وهو ما يزيد من فرص المواجهة واحتمالاتها.

٥- حسم المواجهة العسكرية مع جيوش نظامية لا يعني حسم نهاياتها، وقد اتضح حجم التسرع في إعلان بوش عن النصر بعد إسقاط النظام العراقي، فأنت تستطيع أن تشعل حربا، لكن قد لا تستطيع التحكم بنهاياتها ونتائجها.

٦- أظهرت نتائج المواجهات السابقة، صعوبة حسم المعركة مع حركات مقاومة شعبية، كما أثبتت قدرة هذه الحركات- بإمكاناتها المحدودة- على استنزاف جيوش عظمى بإمكانات عسكرية هائلة، كما أثبتت حركات المقاومة قدرتها على الانتقال من خوض المواجهات بأسلوب حرب العصابات، التي تعتمد على الكرّ والفرّ، إلى أسلوب المواجهة شبه التقليدية عبر تشكيل جبهة مقابلة، قادرة على منع العدو من التقدم.

٧- بروز دور الصواريخ عاملاً مهماً في توازن القوى العسكرية، وتغيير المفهوم التقليدي لموازين القوى العسكرية، فقد أظهرت المواجهات العسكرية عدم إمكانية الرهان على الضربات الجوية في حسم نتائج المواجهات العسكرية، وأن وهْم «الحرب النظيفة» ربما يكون ولَّى إلى غير رجعة، فما حصل في الحروب الأمريكية السابقة على العراق وبقايا يوغسلافيا عام ١٩٩١، والتي استطاعت الولايات المتحدة حسم نتائجها من الجو دون تكبد خسائر تذكر، يبدو أمراً يصعب تكراره في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان.

٨- اعتماد سياسة الغموض في ما تملكه المقاومة من أسلحة وإمكانات عسكرية، بخاصة حجم قدراتها الصاروخية، وأظهرت حركات المقاومة قدرتها على مفاجأة القوى الكبيرة بما تملك من إمكانات تسلُّحية وخطط للمواجهة.

٩- فشل سياسة تثوير المدنيين ضد المقاومة نتيجة استهدافهم وإيقاع خسائر كبير في صفوفهم بهدف تحريضهم ضد المقاومة ودفعهم للضغط عليها.

١٠-فشل سياسة تدمير البنى التحتية واستخدام قوة نار هائلة ومدمرة، في تحطيم معنويات المقاومين وتغيير قناعات حاضنتهم الشعبية.

١١-بعد مواجهتي لبنان عام ٢٠٠٦ وغزة عام ٢٠٠٩ سادت تهدئة غير معلنة على الجبهتين ومن كلا طرفي المواجهة، وفيما رأى البعض أن الأمر فرض قيوداً على ممارسة حزب الله وفصائل المقاومة الفلسطينية لأعمال المقاومة، فإن الصحيح أن نتائج المواجهتين كبَّلتا يد القوات الإسرائيلية وفرضتا عليها تخفيض مستوى أعمالها العدوانية ضد قطاع غزة ولبنان.

١٢-هزّت المواجهات الأخيرة في لبنان وغزة ثقة الفرد الإسرائيلي بقدرة جيشه على الانتصار، وعلى توفير الأمن الشخصي للمواطن الإسرائيلي، وخلافاً لما كان عليه الحال في أوقات سابقة، تحولت مواجهات الجيش الإسرائيلي إلى حروب مكلفة للمواطنين الإسرائيليين، الذين باتوا مضطرين لدفع الثمن، تماماً كما هو حال المدنيين في الساحات العربية التي تتعرض للعدوان الإسرائيلي.

١٣-قرع طبول الحرب والحشود العسكرية وإجراء المناورات، لا يعني بالضرورة أن الحرب باتت أمراً مرجحاً، فعملية الاستعداد لمواجهات محتملة باتت منفصلة عن قرار الحرب.